Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القدماء فناءً تامًّا، وأنهم عاشوا على التقليد والمحاكاة لمثلهم الأدبية محاكاة القاصر للرشيد، بل هى محاكاة البصير إذ استقر فى نفوسهم أثناء نضالهم العنيف مع الصليبيين والمغول أن يحتفظوا للأدب بشخصيته العربية ومقوّماتها الأصلية، حتى تظلّ جذوة العروبة الكامنة فى طواياه متّقدة تُضْرم حفيظتهم إضراما يعصف بأعدائهم عصفا.

فمحاكاتهم للقدماء وحفاظهم على مقومات الأدب العربى التقليدية لم يندفعوا فيهما عن جمود ومحبة للتقليد من أجل التقليد، كما تبادر إلى بعض الباحثين، وإنما اندفعوا عن وعى أصيل بأن هذه المقومات ينبغى أن تظل حيّة حياة قوية، حتى لا تضعف فى النفوس روح العروبة ضعفًا قد يفضى إلى القضاء عليها قضاءً مبرما. ومن أجل ذلك ظلوا يحتفظون للأدب بتلك المقومات موغلين فى إساغتها وتمثّلها حتى أصبحت جزءًا لا يتجزأ من جوهر نفوسهم ومن آثارهم الشعرية والنثرية.

وليس معنى ذلك أنهم عاشوا على استظهار المقومات التقليدية الموروثة فى أشعارهم دون استلهام بيئاتهم ودون تلاؤمٍ مع عصرهم وخصائص نفوسهم وطباعهم وحقائق حياتهم الواقعة. فقد فسحوا لكل هذه الجوانب مع احتفاظهم بتلك المقومات التى فرضوها على أنفسهم فرضًا، كى يحتفظوا للشعر بشخصيته العربية الخالدة. ومن يرجع إلى أشعارهم يجدهم قد وصفوا بيئاتهم وكل ما فيها من سهول وجبال وثلوج وجداول وأنهار ونسيم يداعب الأغصان وطير تملأ الأجواء شدوًا وغناءً.وقد عاشوا عصرهم والأحداث الخطيرة التى وقعت فيه، وكان أهم هذه الأحداث الحروب الصليبية والمغولية، ونرى معاركها مسجلة تسجيلًا رائعا فى أشعارهم وفى رسائلهم الديوانية كما نراهم يُشْعلون المجاهدين المناضلين عن العَرين حماسة كان لها أثرها العميق فى انتصاراتهم الحاسمة. ويصور ذلك صلاح الدين تصويرًا دقيقًا، إذ يقول عن كاتبه المشهور القاضى الفاضل البَيْسانى: إننى لم أنتصر بسيفى، وإنما انتصرت بقلم القاضى الفاضل، فقلم القاضى الفاضل فى رأيه وبشهادته كان السلاح الحربى الفاتك الذى قهر